

أصول وواقع التعمير في الجزائر

أصول وواقع التعمير في الجزائر

د. العلمي عبد الفتاح
جامعة سكيكدة

ملخص: تتحكم في عملية التعمير وتوزيع السكان عدة عوامل طبيعية، تاريخية واقتصادية وفق كبرى المناطق الجغرافية في الجزائر من تل وهضاب وصحراء.

فتكتظ المنطقة الساحلية والمناطق القريبة منها ثم تقل تدريجيا كثافة السكان مروراً بالهضاب ونزولاً إلى أقصى الجنوب إلى أن تنعدم في بعض جيوب الصحراء بسبب قساوة المناخ وقلة موارد العيش والعمل. لكن، في الآونة الأخيرة، ومنذ ما يقارب عشرية من الزمن، بدأت ملامح التعمير تتغير تدريجياً بفعل نشوء المدن الداخلية الصغرى والمتوسطة، إلى جانب نشأة حديثة لنسيج عمراني حول المدن الصحراوية القديمة تحت تأثير عوامل التنمية والتجارة وصناعة المحروقات مسجلة هنا وهناك وتيرة نمو حضري تتفوق على مدن الشمال بصفة عامة.

Résumé : L'urbanisation et la répartition de la population sont fonction des facteurs géographique, historique et économique dans l'espace algérien qui se distingue par trois grandes régions climato- géographiques, à savoir le Tell, Hauts plateaux et Sahara.

Le littoral algérien et ses proches régions connaissent une densité démographique très élevée, mais cette dernière décroît progressivement en descendant vers les Sud passant par les Hauts plateaux sous l'effet des aléas climatiques et la pénurie des ressources de vie et de l'embauche.

Cependant, et depuis une décennie, nous observons quelques signes de changement en matière d'agglomération et d'urbanisation sous l'effet d'évolution des petites et moyennes villes dans l'intérieur du pays. En plus, la genèse d'un tissu urbanistique autours des anciennes villes sahariennes qu'on peut d'ores et déjà identifiée aux effort de développement, au commerce et à l'industrie des hydrocarbures. Cette évolution enregistre, çà et là un rythme de croissance urbaine dépassant parfois les villes du Nord.

تمهيد: يمثل إقليم الجزائر كلاً طبيعياً جد متباين، حيث يتألف، من الشمال إلى الجنوب: من السهول الساحلية، ومن جبال الاطلس التلي، ومن الهضاب العليا وجبال الاطلس الصحراوي التي تحدد في مجملها مناطق أو أقاليم مناخية نباتية كبرى: التل، الهضاب، السهول والصحراء. لكن هذا الوسط يتميز اساساً بصفة عدم توازن تركز السكان حيث تتفاوت فيه بصفة كبيرة الكثافة السكانية. وتبلغ الكثافة السكانية الوسطى 15 نسمة في الكيلومتر المربع الواحد (15 ن/كلم²) لكن بتفاوت كبير من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب بحسب هذه الوحدات الجغرافية الطبيعية.

وتظهر الجزائر كبداية قليل التعمير مقارنة ببلدان منطقة حوض البحر الابيض المتوسط أين تتعدى الكثافة السكانية الوسطى اكثر من 110 ن/كلم². لكن هذه الكثافة الوسطية الضعيفة تخفي وراءها تفاوت على مستوى التعمير بحسب المناطق والجهات، فلا تتعدى 2 ن/كلم² في الجنوب مقابل 274 ن/كلم² على الساحل في الشمال (ONS, 2011,12). يجب أن ننبه أن الأرقام المتعلقة بالكثافة توحى بمدى القدرات الاقتصادية والغذائية لهذه المناطق التي في مجملها مكونة من اراضي قاحلة ومناخ قاس أو بدون أي قيمة زراعية: صحراء، جبال، شعاب... إلخ أولاً. شساعة القطر وتمرکز السكان:

إن تنظيم السلطات الاستعمارية للوسط في الجزائر كان قد خلق نوعاً من التنظيم الاجتماعي للمكان شديد التأثير بالخصائص الفيزيائية للبلد. وقد أشرنا سابقاً إلى كبرى المناطق الجغرافية التي ينقسم إليها الاقليم الجزائري، حيث تنقسم الجزائر إلى ثلاث مناطق كبرى: الأولى في الشمال بمحاذاة البحر الابيض المتوسط وبعمر نحو الجنوب تمتد من 50 إلى 100

أصول وواقع التعمير في الجزائر

كيلومتر من الغرب إلى الشرق، أما الثانية فهي بعمق 200 إلى 300 كيلومتر، بين الأطلس التلي والأطلس الصحراوي، وهي تضم السهول العليا القسنطينية في الشرق ومناطق الهضاب العليا zones stepmiques في الغرب؛ أما المنطقة الثالثة فهي الصحراء الشاسعة التي تغطي 5\4 من كامل التراب الوطني.

ويتوزع السكان في الجزائر بصفة غير متوازنة على الاقليم، فبالنسبة للشريط الساحلي (1.9 % من الاقليم أين يتمركز 36 % من السكان (حوالي 274 ن/كلم²) أين توجد أحصص الأراضي، الوفرة العالية للموارد المائية والثروة الغابية. تمتاز هذه المنطقة بنسبة عالية من الجهوية من حيث وسائل البنية التحتية كالنقل والاتصال(الطرق، السكك الحديدية، الموانئ، المطارات) إلى جانب كل وسائل التنمية (ماء، الكهرباء، غاز، هاتف) الضرورية للنشاط الصناعي. وتتركز جل الأنشطة الصناعية في هذه المنطقة جراء ذلك: 91 % من صناعة الحديد والصلب، الصناعة الميكانيكية، صناعة المعادن والصناعة الالكترونية؛ 90 % من الصناعة مواد البناء، 85 % من الصناعة الكيماوية، 65 % من صناعة الجلود و56 % من صناعة النسيج (CNES, 1998,34)

أما المنطقة السهلية والسهول العليا القسنطينية (3.10% من التراب الوطني)، المحصورة بين سلسلة جبال الأطلس التلي في الشمال وجبال الأطلس الصحراوي في الجنوب، أو ما يعرف بمنطقة الهضاب العليا فهي شبه مشلولة بقساوة العوامل الطبيعية كنقص كمية التساقط السنوي (من 200 إلى 400 ملم امطار سنويا)، غياب شبكة من السدود المتفرعة، أما المجاري المائية فهي عبارة عن وديان أغلبها جاف خلال جزء كبير من السنة. إنها مناطق تشتهر بزراعة الحبوب وتربية الاغنام منذ القدم ؛ لكنها تضم ما نسبته 27 % من يحمل السكان للجزائر(30 ن/كلم²). وقد استفادت هذه المناطق منذ الاستقلال من استثمارات صناعية كبرى مع نقص فادح في البنى التحتية من طرق وسكك حديدية لكن

جدول رقم1. تطور توزيع السكان والكثافة حسب الجهات والمناطق الجغرافية

المنطقة المساحة %	السكان بالملايين				البنية النسبية للسكان %				الجغرافية
	1977	1987	1998	2008	1977	1987	1998	2008	
شمال وسط	5,93	7,7	9,42	10,7	35,4	33,4	32,3	31,4	
شمال شرق	2,71	3,64	4,55	5,18	16,2	15,8	15,7	15,2	
شمال غرب	2,91	4	4,85	5,63	17,4	17,4	16,7	16,5	
كامل الشمال	11,55	15,34	18,82	21,51	69	66,6	64,7	63,1	
هضاب عليا وسط	0,9	1,31	1,92	2,54	5,4	5,7	6,6	7,4	
هضاب عليا شرق	2,09	3,24	4,23	4,9	12,5	14	14,5	14,4	
هضاب عليا غرب	0,92	1,31	1,57	1,89	5,5	5,7	5,4	5,6	
كامل هضاب العليا	3,91	5,86	7,72	9,33	23,4	25,4	26,5	27,4	
الجنوب شرق	0,95	1,31	1,83	2,29	5,7	5,7	6,3	6,7	
الجنوب غرب	0,27	0,42	0,56	0,72	1,6	1,8	1,9	2,1	
هقار . طاسيلي	0,05	0,11	0,17	0,23	0,3	0,5	0,6	0,7	
كامل الجنوب	1,27	1,84	2,56	3,24	7,6	8	8,8	9,5	
إجمالي	16,73	23,04	29,1	34,08	100	100	100	100	

المصدر: ONS,L'Armature urbaine RGPH 2008, Collections Statistiques N° 163/2011, Alger, 213.

بدأت المنطقة تستفيد من مشاريع ضخمة في مجال بناء السدود وتكثيفها وربطها ببعضها البعض ومد شبكة الطرقات مثل

أصول وواقع التعمير في الجزائر

الطريق السريع شرق غرب في إطار مشاريع تنمية الجنوب والهضاب العليا منذ أكثر من عشرية من الزمن. أما الصحراء الشاسعة بمساحة تقدر بـ 2 مليون كلم² (87.4 % من مجمل التراب الوطني) فهي تتميز بنظام تجمع سكاني جد خاص، على علاقة وطيدة بالخصائص الفيزيائية والمناخية. تحوي هذه المنطقة الجزء الأعظم من الموارد الطاقوية للبلاد وقد نمت بجانب بعض التجمعات القديمة صناعة بترولية ضخمة. كما يُعتبر هذا الاقليم، إلى تاريخ غير بعيد، ضعيف جدا من حيث التعمير السكاني بنسبة 10 % من إجمالي السكان (1.4 مليون نسمة سنة 1977، 2 مليون سنة 1987، و3 مليون نسمة سنة 2008)، أما الكثافة السكانية فهي ضعيفة جدا (1.8 ن/كلم²) مع تركز شديد لسكان هذه المنطقة في الجهة الشمالية الشرقية.

جدول رقم 2. الكثافة السكانية ومعدلات النمو السكاني حسب الجهة والمنطقة الجغرافية

المنطقة الجغرافية	الكثافة السكانية ن/كلم ²				معدل النمو السنوي الوسطي*		
	1977	1987	1998	2008	87/77	98/87	08/98
شمال وسط	166,71	216,65	264,90	301,18	2,6	1,8	1,3
شمال شرق	85,88	115,60	144,33	163,98	3,0	2,0	1,3
شمال غرب	81,52	112,34	136,37	157,86	3,2	1,7	1,5
كامل الشمال	112,33	149,43	183,28	209,32	2,9	1,8	1,4
هضاب عليا وسط	8,15	11,90	17,42	23,04	3,8	3,4	2,9
هضاب عليا شرق	39,06	60,39	78,79	91,27	4,4	2,4	1,5
هضاب عليا غرب	6,59	9,37	11,24	13,58	3,5	1,6	1,9
كامل هضاب العليا	12,90	19,31	25,43	30,76	4,1	2,5	1,9
الجنوب شرق	2,54	3,50	4,89	6,13	3,2	3,0	2,3
الجنوب غرب	0,36	0,55	0,74	0,94	4,4	2,7	2,5
هقار . طاسيلي	0,06	0,14	0,20	0,27	7,7	3,7	3,0
كامل الجنوب	0,65	0,93	1,30	1,64	3,7	3,0	2,4
إجمالي	7,03	9,68	12,22	14,31	3,1	2,1	1,6

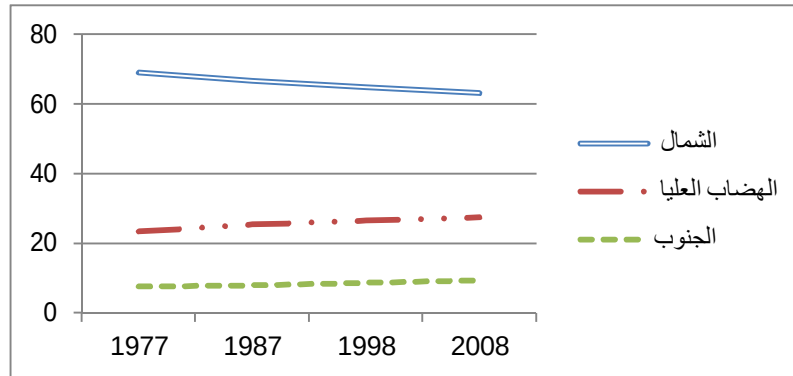
المصدر: ONS, L'Armature urbaine RGPH 2008, Collections Statistiques N° 163/2011, Alger, 213.

* يحسب معدل النمو السكاني السنوي الوطني بقسمة معدلات النمو بين تعدادين متعاقبين على مجموع سنوات الفاصلة بين التعدادين.

لم يكن سكان مدن الجهة الشرقية يتعدى 20 ألف كأقصى حد غداة 1954 بالنسبة لهذه المدن على حدة. مدينة بسكرة التي تعتبر أكبر تجمع سكاني في الجنوب تم إحصاء فيها عند هذا التاريخ أقل بقليل من 20 ألف ساكن، وقد أصبحت تضم في سنة 1998 أكثر من 170 ألف وقد كانت تحتل المرتبة 20 سنة 1954 لتصبح في المرتبة 10 حاليا. مما سبق يبدو أن الوسط في الجزائر يتميز بتمركز شديد للسكان، حيث يعيش 90 % منهم على 17 % من المساحة الاجمالية من القطر في الشمال والهضاب العليا (أنظر الجدول رقم 3). وغم ان هذه النسبة هي في تراجع نسبي خلال السنين الأخيرة لكن الكثافة السكانية في الجزائر وكثافة المدن تتراجعان كلما اتجهنا جنوبا.

أصول وواقع التعمير في الجزائر

الشكل رقم 1. تطور نسبة السكان حسب كبرى المناطق الجغرافية بين 1977 و 2008



ثانيا. الانفجار الحضري في الجزائر:

لاشك أن الجزائر أصبحت اليوم بلد يفوق فيه عدد سكان المدينة سكان الريف. ورغم النمو المعتبر لسكان الريف لكن حجم سكان المدن قد تضاعف أكثر من 6 مرات عما كان عليه عشية الاستقلال وانتقل خلال 50 سنة من 3.7 إلى 24 مليون نسمة أي 65%. لقد كان نمو سكان المدن سريعا جدا في السنوات الأولى من الاستقلال: مما يضاهي مرتين النمو العام للسكان، لكنه عرف بعد ذلك تراجعاً نسبياً من حيث الوتيرة مع بقاءه مرتفعاً. وتباطؤ عدد سكان المدن خلال السنوات الأخيرة بصفة ملحوظة رغم الهجرة التي عرفتها المراكز الحضرية التي حدثت نتيجة سنوات "الحرب الأهلية" وما نتج عنها من ضحايا مدنيين. وإذا اعتمدنا على نموذج الانتقال الحضري Baudelle, 2000, 15 ; Moriconi-Ebrard, (1993, 86)، تكون الجزائر في خضم المرحلة الأخيرة من تسارع النمو الحضري.

جدول رقم 3. تطور عدد سكان المدن خلال التعدادات السكانية المختلفة

السنة	سكان المدن	سكان الريف	إجمالي السكان	نسبة سكان المدن	معدل التغير	المتوسط %
					سكان المدن	إجمالي السكان
1966	3778482	8243518	12022000	31.4	7.2	3.0
1977	6686785	10261215	16948000	40.0	5.3	3.2
1987	11444249	11594693	23038942	49.7	5.5	3.1
1998	16966937	12133936	29100863	58.3	3.7	2.2
2008	21740920	13325080	35066000	62.0	2.5	1.85

Source: ONS, Evolution des populations et des limites communales 1977/1987, Coll Statistique n°22

ONS, Evolution des agglomérations 1966, 1977 et 1987, Coll Statistique n° 97.

إن الاعتقاد السائد حول التمدن في الجزائر (أي نمو سكان المدينة) يتمثل في غلبة هذه الظاهرة في المدن والتجمعات الكبرى. وفي الحقيقة بدأت حركة التمدن بوتيرة سريعة غداة الاستقلال في المراكز الحضرية القديمة مثل العاصمة، وهران وقسنطينة كما تبين من المعدلات المرتفعة لمعدل النمو الحضري (Kateb, 2003, 176). لكن هذه الوضعية قد عرفت خلال 3 عشرات الأخيرة تحولات معتبرة حيث تحصلت المراكز الحضرية القديمة على أدنى معدلات النمو الحضري بينما لوحظت أعلى المعدلات في شرق الصحراء والولايات الأقل تحضرًا سابقًا (الجلفة والمدينة مثلاً) (Côte, 2005, 36).

. شساعة الأراضي ومشكلة التعريف

لقد تغير التعريف المقدم للسكان الحضريين بتغير الظروف التاريخية، الطبيعية والاقتصادية. لقد كان سكان الحضر يعرفون وفق بلديات النشاط الكامل¹ أي وفق مستوى تركز الأوروبيون فيها وتأسيس مجلس بلدي تبعا لذلك، وقد تطور عدد هذه البلديات من 47 في تعداد 1948 إلى 48 في سنة 1954 ثم إلى 72 سنة 1960.

أصول وواقع التعمير في الجزائر

بعد الاستقلال اعتمدت مؤشرات أخرى لتعريف سكان الحضر حيث اضيف مؤشر السكان النشطون غير الزراعيون لمؤشرات المستعملة لتمييز التجمعات الحضرية والتجمعات شبه حضرية. لكن ابتداء من 1977 استبدل تعريف البلدية بالتجمع كوحدة حضرية قاعدية، وقد تقرر ذلك بحكم أن البلدية في الصحراء والهضاب العليا تتربع على مساحات واسعة تشمل مدن أهلة ؛ وهذه البلديات تحمل في طياتها سكان حضر وريف في نفس الوقت من الواجب التمييز بينهم. وإذا كان المشكل لا يطرح بالنسبة للتجمعات الساحلية مثل وهران وعنابة التي تحتوي على عدد من البلديات؛ بينما التجمعات الحضرية في الهضاب العليا والصحراء فتتضمنها بلديات لم تعد تصنف حضرية، ذلك لأن هذه البلديات تحتوي كثير من التجمعات التي تضم نسبة كبيرة من سكان الريف في مساكن أكثر انتشارا. فالبلدية تحتوي مساحة شاسعة لكن بكثافة سكانية ضعيفة في الجنوب (1.5 ن/كلم²) و(51.3 ن/كلم²) في الهضاب العليا وتصل إلى (335 ن/كلم²) في شمال البلاد. وقد أدى اعتماد عدة مؤشرات في تعريف الحضر إلى بعض التناقضات خلال التعدادات السكانية خاصة تعداد 1977 وتعداد 1987، حيث أنه من بين 260 تجمع بعدد سكان بين 5000 و10000 نسمة في 1987 لم يصنف 181 منها حضريا في حين ان الحد الأدنى المعروف بالنسبة للحضر هو 5000 نسمة. والسبب في ذلك يعود إلى مؤشر نسبة السكان النشطون الزراعيون. بينما وجد هناك 49 تجمعاً بأقل من 5000 نسمة من مجموع 543 من نفس الحجم الذين تم تصنيفهم حضر لأنهم مراكز للولايات أو دوائر.

كل التجمعات الحضرية خلال تعداد 1998 يفوق عددها 5000 نسمة من بينها 196 تجمع يفوق عدد سكانه 5000 وعدد منهم أكثر حتى من 10000 ساكن قد تم تصنيفهم كسكان شبه حضر semi-urbains. كل ذلك بسبب مؤشرات مثل نسبة السكان النشطون الزراعيون والربط مع شبكات المياه، الغاز والتطهير.

من ذلك يمكن القول أن هناك تقييما ناقصا لمستوى سكان الحضر في الجزائر من طرف المصالح الإحصائية. لذلك يكون من المشروع التساؤل حول تعريف السكان الحضر في الجزائر لاسيما مصداقية حجمهم المقدم من طرف المصالح الإحصائية، وأن أي دراسة أو بحث حول توزيع السكان في الجزائر يجب أن يعتمد على السكان الحضر ويستكمل التحليل بمفهوم التجمع السكاني حتى يسمح بفهم أعمق لأهمية وشدة التركيز السكاني وتوزيعهم على مختلف الاقاليم الجزائرية.

وإذا أردنا أن نقوم بخلاصة عن أهم الدراسات حول النظام الحضري وتوزيع السكان على الاقليم مثل دراسة رجيمي ودراسة كيرين باس Guérin- Pace اللتان تتفقان على وجود عمليتين سيوريتين في نفس الوقت وبصفة متزامنة، فمن جهة هناك انخفاض في التفاوت الموجود بين وحدات النسق الحضري، لكن مع نمو أحجام المدن المصنفة كبيرة (نمو من الفوق)، ومن جهة أخرى توازن النسق الحضري من الاسفل، مع ظهور وتطور عددا أكبر من المدن الحضرية (صغيرة ومتوسطة) Guérin- Pace (1993, 53).

إذا إخذنا سكان التجمعات الكبرى في الجزائر (العاصمة، وهران، قسنطينة وعنابة)، فإننا نجد أن وزنها بالنسبة لكامل سكان الحضر قد تضاعف خلال 30 سنة مضت ؛ حيث أن 1 من 6 حضر يسكن إحدى هذه التجمعات الحضرية الأربعة بينما كان تقريبا 1 من 2 منذ 60 عاما. وإذا كان هناك تفوق واضح للجزائر العاصمة بالنسبة للتجمعات الأقل منها درجة مباشرة، فإن هناك استقرار في النسق الحضري بصفة عامة وهي تعود إلى نمو الكثافة فيها عامة. يعني ذلك أن النمو الحضري ينتقل بالتدرج إلى التجمعات الأدنى في التسلسل الحضري وذلك رغم تعاظم التفوق الحضري العاصمي.

ويعود هذا التفوق الحضري العاصمي بعد الاستقلال لأسباب ذات علاقة بمحصر وتمركز كل وظائف الدولة في عاصمة البلاد، الإدارية، الحكومية والدبلوماسية، إلى جانب تطور البنية التحتية والاقتصادية بصفة خاصة ونشوء دورها الصناعي جراء نمو

أصول وواقع التعمير في الجزائر

المناطق الصناعية (الروية . الرغبة، 45000 منصب صناعي) (Kateb, 2003, 322) ، فأصبحت بذلك مدينة الجزائر أول متربول وطني. بينما بقيت المدن من الدرجة الثانية تمثل إلى حد ما متربول جهوي مثل مدن كوهرا، قسنطينة وعنابة إلى جانب مدن من درجة ثالثة مثل تلمسان، باتنة، تيارت وسطيف (Redjimi, 2000, 190).

ثالثا. الصحراء: الوجه الجديد للتعمير في الجزائر:

لقد أشرنا سابقا إلى التفاوت السكاني وفق المناطق الكبرى المعرفة سابقا. لكن هذا التفاوت يبدو كأنه يمس كذلك حركة التحضر والنمو الحضري في الجزائر. ويتجلى ذلك في اختلال توزيع التجمعات الحضرية. وتبين المقارنة مع الوضعيات السابقة أن هناك حركة أكيدة في التوزيع الجهوي للسكان وللتجمعات السكانية. فكانت هذه الحركة في صالح الصحراء والهضاب العليا أولا، فقد تراجعت نسبة السكان خلال العشرية بين 1977 و 1987 على الشريط الساحلي وأزداد عددهم في الصحراء والهضاب العليا. ويبدو من خلال معطيات التعدادات السابقة أن زيادة التجمعات الأكثر من 5000 ساكن، عما كانت عليه إبان الاستعمار، دليل على أن حدوث تحولات مهمة تتمثل في الاتجاه تكثيف Tendence lourde إلى النسق الحضري على مستوى كامل التراب الوطني (أنظر الجدول رقم 5 ب).

في كامل الصحراء قبل 1954 لم يكن هناك إلا عشرة تجمعات يفوق عدد سكانها 5000 نسمة ولم تكن هناك أي مدينة كبيرة، مع وجود عدد ضئيل من التجمعات الصغيرة والمتوسطة. وقد تركز السكان حينها في الواحات والقصور خلال عشرات السنين، لكن الوضعية تغيرت تماما بعد 50 عاما منذ الاستقلال حيث تأسست شبكة حضرية حقيقية بتجمعات يفوق عددها 8 مرات تلك التي كانت قبل 1954. كما نجد تجمعات عديدة بأحجام مختلفة منها 6 يفوق عدد سكانها 100000 ساكن. جل هذه التجمعات متمركزة في الشمال الشرقي للصحراء بجانب أهم الابار البترولية حيث يبدو أن الشبكة الحضرية هي أكثر كثافة في هذه المنطقة من الصحراء عنها في باقي المناطق قد يكون ذلك على علاقة بنمو صناعة المحروقات في هذه الجهة من الوطن (Côte, 2005, 40).

في المناطق الداخلية المتمثلة في السهوب والسهول العليا تضاعف عدد التجمعات الحضرية التي يفوق عدد السكان فيها 10000 ساكن إلى 12 مرة بين 1954 و 1998. كما نجد 14 تجمعاً بعدد أكبر من 100000 ساكن و 21 تجمعاً بين 50000 و 100000 ساكن. بينما التجمعات الأقل حجماً نسبياً تبدو أكثر عدداً من الأخرى. وتعرف ولايات هذه المنطقة بسلبية فارق الهجرة (Solde migratoire négatif) فيها حتى بداية سنوات 2000 مثل مديّة، مسيلة، سعيدة التي استفادت من استثمارات صناعية على قدر من الأهمية خلال مرحلة التصنيع الكبير التي عرفت الجزائر، مثل المركب الصناعي الصيدلاني لإنتاج المضادات الحيوية بالمديّة ومركب العتاد المائي في مدينة مجاورة (بوقرة)؛ وقد تم بناء عدة مؤسسات صناعية للنسيج وغيرها في باتنة (13 مؤسسة)، و 9 مؤسسات في سعيدة منها مركب إنتاج الورق وفي تيارت 10 مؤسسات، منها مصنع لتكيب السيارات بالشراكة مع الخارج.

توظف هذه المجموعات الكبرى عموماً الآلاف من العمال لكنها في حالة اقتصادية مزرية نسبياً ولا تحيا إلا بدعم من الخزينة العمومية. لقد كان زرع هذه الوحدات في مناطق دون ثقافة أو تقاليد صناعية إلى جانب تعرضها إلى صعوبات وعقبات اقتصادية مثل ارتفاع تكاليف الإنتاج وقلة الانتاجية وبالتالي زيادة ديونها العمومية.

أصول وواقع التعمير في الجزائر

جدول رقم 4: نمو عدد التجمعات السكانية في الجزائر حسب المناطق الجغرافية حسب حجم السكان

كامل الجزائر			الجنوب			الهضاب العليا			الساحل			حجم التجمعات
2000	1987	1954	2000	1987	1954	2000	1987	1954	2000	1987	1954	
32	16	3	6	2	0	14	5	1	12	9	2	أكثر من 100000
34	26	4	2	5	1	21	14	0	11	7	3	100000- 50000
114	79	12	15	10	0	44	35	3	55	34	9	50000 – 20000
205	92	24	16	11	6	79	36	9	110	45	9	20000 - 10000
390	234	33	42	19	3	161	94	9	187	121	21	10000-5000
775	447	76	81	47	10	319	184	22	375	216	44	إجمالي

المصدر: تم بناء هذا الجدول من معطيات الديوان الوطني للإحصائيات، والدراسة التي قام بها رجيمي Redjimi 2000

وكيران باس. Guérin-Pace 1999.

إن تلك العوامل من شأنها رهن مستقبل هذه المناطق بسبب الاصلاحات الاقتصادية في حالة خصخصة المؤسسات العمومية أو غلقها، مما يؤدي إلى تراجع وتيرة التصنيع في هذه المناطق. عندها سيحدث انتعاش في الحركة المحجرية، مرة أخرى، نحو المدن الساحلية ذات التراث الصناعي الأقوى.

. معالم التعمير في الصحراء

إن ظاهرة توزيع السكان في الجنوب يمكن تناولها من جوانب عدة، أهمها حركة التعمير والتحضر في هذا المنطقة الشاسعة التي تعرف بالصحراء. والصحراء كوسط طبيعي يمتد من المحيط الأطلسي إلى نهر النيل حيث لا يجب عزل الصحراء الجزائرية بجهاقتها المختلفة (شرق، غرب ووسط الصحراء) عن كامل هذا القطر الشاسع من المحيط إلى النهر الذي يتسم بميزة واحدة مشتركة ألا وهي الجفاف.

ويعود اصل التعمير في الصحراء إلى متطلبات التجارة والمبادلات التجارية عبر العصور، فمنذ القرن الثامن إلى الثامن عشر نشأت تدريجيا حول ممرات القوافل التجارية محطات لدعمها بما تحتاج إليه من ماء وطعام ووسائل مختلفة، فانشأ الاهالي الابار والواحات، وممرات العبور والمراكز الحضرية. ففي منطقة الجنوب الشرقي تتوزع مدن مثل بسكرة، ثقرت، ورقلة مؤدية إلى أغداس بالنيجر وكانت في نفس الوقت اماكن تجارية نشطة ومنطقة عبور الحجيج إلى مكة المكرمة. في الصحراء الوسطى ظهرت مدن أخرى متأخرة على التجارة مثل الاغواط، غرداية والقولية. في الجنوب الغربي الذي مثلت معالم طرق القواراة والتوات مع نشوء تيممون وتامنتيت كرباط بين التل من سيجلماسة نحو تومتبكتو والسودان.

لقد كان لكل واحدة من هذه المدن شأن من حيث عظمة الدور التي لعبته على مر التاريخ مثل بسكرة، وثقرت وورقلة وغيرها. إن التعمير ودرجة التحضر الحالية لها أصولها التاريخية وسابقة على الاستعمار والدول المغاربية الحالية، حيث أستعملت تلك المدن والتجمعات السكانية كمراكز لمراقبة الاقطار الصحراوية. لكن شبكة التحضر الحالية قد تغيرت عما كانت عليه، فظهرت مدن جديدة مثل بشار وتامنغست وضمحلت أخرى مثل سدراته، سيجلماسة وتامنتيت. ناهيك عن القطيعة الاحصائية فيما يخص وتيرة التحضر في الصحراء التي عرفت ثورة في القرن العشرين.

. من بين المدن الجزائرية 35 الاكبر حجما، 7 منها صحراوية (بسكرة، ورقلة، بشار غرداية، ثقرت، الواد، الاغواط) ويسكن بها أكثر من 150 ألف نسمة.

يتجلى هذا عند مقارنة معدل التحضر بين الشمال والصحراء، حيث خلال 40 سنة انتقل معدل التحضر في الصحراء

أصول وواقع التعمير في الجزائر

وفي الشمال من 24 إلى 68% ومن 32 إلى 57% على التوالي. بمعنى تفوق للصحراء بـ 10 نقاط، هذا يعني ان الوتيرة هي اسرع في الصحراء. أما عن المقارنة بين اجزاء الصحراء المختلفة فتبين المعطيات أن الجنوب الشرقي قريب من المتوسط في الصحراء، وان الصحراء الغربية هي أكثر ريفية (قورارة، توات) لكن الصحراء الوسطى (الاغواط، غرداية وتامنغست) أكثر حضرا من الصحراء الشرقية.

جدول رقم 5. معدل الحضرة² في منطقتي شمال الجزائر والهضاب العليا مجتمعة والصحراء خلال التعدادات السكانية

التعداد (ت ع س)	شمال الجزائر (38 ولاية) %	الصحراء (10 ولايات) %
1966	32	24
1977	39	40
1987	49	56
1998	57	68

المصدر: تم بناء هذا الجدول من معطيات الديوان الوطني للإحصائيات، والدراسة التي قام بها رجيمي Redjimi 2000 ومارك كوت Côte 2005.

وإذا كانت هذه الظاهرة مشتركة بكامل اقطار الصحراء من المحيط إلى النهر إلا انها متفاوتة الوتيرة فقد بلغت 80 % في الصحراء الوسطى و 62 % في الصحراء الغربية. ومن بين العوامل التي ساعدت على ذلك:

- .النزوح الريفي الذي يؤدي بالسكان إلى المراكز المهمة؛
- . استقرار البدو الرحل الذين بدأوا يتناقصون من سنة إلى أخرى إلى أن انتهوا بصفة شبه كلية اليوم؛

جدول رقم 6. معدل التحضر حسب المناطق الكبرى الصحراوية

المنطقة	صحراء الغرب (3 ولايات) %	صحراء الوسط (4 ولايات) %	شرق الصحراء (3 ولايات) %
التعداد (ت ع س)			
1966	22	35	29
1977	34	56	35
1987	51	64	54
1998	62	80	64

المصدر: تم بناء هذا الجدول من معطيات الديوان الوطني للإحصائيات، والدراسة التي قام بها رجيمي Redjimi 2000 ومارك كوت Côte 2005.

- الهجرة الداخلية لسكان الشمال في اطار العمل؛
 - التجارة والاستثمار خاصة في المنطقة الشرقية من الصحراء حول آبار المحروقات؛
- و أخيرا النمو الطبيعي كأحد العوامل المهمة للتعمير في الصحراء، حيث أن هناك تفوق طفيف لمعدل الخصوبة في الصحراء (أنظر الفصل 7).

يمثل النمو الحضري في الصحراء خصوصية بتزاوجه مع موجة من التجديد الزراعي. فقد انتجت موجة الدفع الحضري مرحلة أولى اين اهتزت فيها الزراعة بسبب تنامي عدد الموظفين السامين في ميدان المحروقات إلى جانب تأثيرات الثورة الزراعية. لقد عرفت فترة السبعينات ما سمي "بأزمة الواحات"، لتتعافى الزراعة بعدها خلال سنوات 1980 وسنوات 1990 جراء الاصلاحات التي مستها، مثل السياسة المعدلة للعقار (قانون 1983) ومخطط الوطني لتنمية الزراعة في سنة 2000، وفك العزلة، واستعادة الثقة عند الفلاحين، كلها عوامل ساعدت على حدوث شبه "انفجار زراعي" بعد فترة أزمة الواحات (CNES, 1998, 66).

أصول وواقع التعمير في الجزائر

لقد كان من نتائج ذلك تزايد أعداد النخيل سنة 2000 إلى ما يقارب 12 مليون بعدما كان لا يزيد عن 5.5 مليون نخلة سنة 1959. وقد كان هذا النجاح أكثر أهمية في منطقة الزيان حيث تضاعفت فيها كذلك زراعة الخضر مرات عديدة باستعمال البيوت البلاستيكية. وقد كانت "المدينة" سندا لهذه الديناميكية عن طريق ضمان مختلف الخدمات المتعلقة بالمدينة، واستثمارات السكان في بسكرة وواد سوف مثلا. على العموم تزاوجت الديناميكية الحضرية والديناميكية الريفية في وسط صحراوي لتخلق حدثا يكاد ينقطع نظيره من حيث التكامل بين الريف والحضر.

إن التحضر في الجزائر يندرج بكل تأكيد في إطار شبكة حضرية وطنية، لكنها داخل هذه الشبكة لا تمثل جزءا بسيطا بل قسما أو شبكة جزئية معروفة ومحددة أو انساقا حضرية صغرى تمثلها المدن في الصحراء. في وسط الصحراء أين تألفت المورفولوجيا الجغرافية والتاريخ وتكاملتا لتنظيم الوسط الصحراوي في أقطار صغيرة معروفة ومكونة من سكان من نفس الاسم مثل المزاب، الثوات، القورارة، والصارورة، كما النفزاوة (في تونس)، وفزان في ليبيا. إنها في الحقيقة شبه بُلدان أو بُلدان صغيرة.

إن هيكلية هذه المدن المجمعمة بفضل تضاريس المياه، يتأسس حولها تنظيم بشري جد نشيط بوجود مدينة أم، تُعتبر عماد الشبكات الحضرية الحالية. ويمكن التأكد من جدية هذا التنظيم من خلال فحص الشبكات الحضرية في منطقة الجنوب الشرقي، حيث أنها شبكات صغيرة لكنها جد محددة، ومهيكلية بقوة. ويمكن ذكر منها شبكة بسكرة بين الزاب الغربي والزاب الشرقي ومدعومة في الغرب بطولقة وأولاد جلال وفي الشرق بسيدي عقبة وزريبات، وتحتوي حوالي 50 مقاطعة على الأقل. أما شبكة تُقرت في منطقة واد غير وتضم 30 مقاطعة في العموم. أما الشبكة الثالثة فهي منطقة واد سوف، وهو المكان الأكثر كثافة ويمثل 60 مركزا. كما توجد حول هذه الشبكات مقاطعات أكثر عزلة مثل طالب لعربي، سطيل، مرارة، الحميرية (Côte, 2005, 70).

إن هذه الشبكات الثلاثة مؤسسة على وحدات ترابية صحراوية ترمي بجذورها في عمق التاريخ وتمثل منذ قرون شبكة مهيكلية من الواحات: الزيان، واد غير، السوف. وتمثل المدن الكبرى مثل بسكرة، وادي سوف وتُقرت أوطان حقيقية إلى جانب كونها مناطق نفوذ، ومدن. عواصم إلى حد ما، مثل ورقلة وغرداية وبشار. رابعا. اسباب تفاوت توزيع السكان:

إن خارطة توزيع السكان في الجزائر لا تُقرأ إلا بمزاوجتها خارطة التساقطات السنوية وخارطة المكونات النباتية الكبرى، التي تحدد في الحقيقة كبرى المناطق المناخية - النباتية التي عرفناها سابقا: تل، هضاب وصحراء. أما المنطقة الأكثر تعميرا فهي الخاصة بالتل التي تتوفر على موارد ومناظر متوسطة. فتسمح التساقطات المعتدلة³ بزراعة الفواكه غير المسقية مثل الزيتون والتين، ثم الحبوب وبعض الخضروات والبقول (العدس، الحمص والبقول....) إلى جانب أشكال مختلفة من الرعي وتربية الحيوانات. ويبدو أن هذه الاتاحة الزراعية والقرب من البحر كانا عاملين حاسمين في تركيز أغلب المدن الجزائرية وأهمها في هذه المنطقة. وعليه فإن 4/3 من السكان يعيشون على مساحة أقل من 3/1 من شمال الجزائر.

1. العوامل الطبيعية لتوزيع السكان

ويمكن أن نلاحظ بسهولة ذلك التفوق للتساقطات في الشرق عنه في الغرب، فإذا كانت تتعدى 600 ملم في كامل الشمال فإنها ابتداء من منطقة العاصمة نحو الشرق تصل إلى 800 ملم. وعليه فإن نصفًا الاطلس التلي يتعارضان بفارق مهم من حيث الكثافة السكانية منذ أكثر من نصف قرن: فإذا كانت تقاس ب 140 أو 145 ساكن/كم² في الغرب فإنها بين 180 و 185 في الشرق الجزائري (Despois, 1960, 920). لكن عامل التساقط لا يمكنه لوحده تفسير ظاهرة الكثافة

أصول وواقع التعمير في الجزائر

العالية في منطقة القبائل الغربية التي هي رغم ذلك منطقة أكثر وعورة منها في الاطلس الغربي، حيث تتعدى الكثافة في مناطق بجاية وتيزي وزو 218 و 273 ساكن/كم² على التوالي.

أما السهول العليا الشرقية، ومعها جبال الحضنة والاوراس وأوراس النمامشة، التي تحيط بها من الغرب ومن الجنوب تمثل منطقة عبور بين التل والسهوب؛ فهذه المناطق تعتبر تالية بالنسبة للبدو الرحل لكنها ليست كذلك بالنسبة لسكان الشمال. ويستثنى من ذلك الجبال الأكثر تعرضا لسقوط الأمطار حيث ينحدر المعدل الوسطي للتساقطات السنوية إلى 400 ملم وتختلط النباتات السهلية مع النباتات المتوسطية لاسيما في الجنوب والجنوب الشرقي. أما الجيوب فلا تعطي إلا محاصيل ضعيفة في هذه المنطقة ماعدا على الشريط الشمالي لها، كما أن قساوة الطقس فيها والرياح الباردة على مرتفعات محصورة بين 800 و 1100 م، لا تلاؤم كثيرا زراعة الأشجار. وتقارب الكثافة الوسطية السكانية 76/ن/كم²، لكنها تبدو أعلى في منطقة الحضنة وفي وديان الاوراس Les vallées de l'Aurès occidental الغربية منها في السهول العليا (Despois, 1960, 920)

أما السهول العليا في الغرب والاطلس الصحراوي المتموجة كلها بين بسكرة والمغرب الأقصى فهي تنتمي إلى ميدان المنطقة السهلية، وهي أصلا سهوبا قاحلة بدون أي سلسلة غابية بارزة ماعدا في جزءا من السلاسل الممتدة نحو الشمال. أما التعمير فهو ضعيف حيث لا تتعدى الكثافة السكانية 20 ن/كم² في الاطلس الصحراوي تصل الكثافة إلى 10 في مقاطعة عين الصفراء وإلى 15 في جبل عمور وبين 15 و 20 في جبال أولاد نايل؛ أما على السهول العليا فهي تمتد من 10 إلى 20 في نواحي مشرية وإلى أكثر من 22 في الشلالة؛ بينما ترتفع أكثر في سهول الحضنة التي تتغذى بالمياه المنحدرة من الجبال القريبة وحتى الأبعد وتصل الكثافة إلى 30 ن/كم².

في السابق كان السكان المستقرين في الصحراء الجزائرية يتركزون حول الواحات ويتوزع الرحل الذين يعيشون على الرعي بصفة شبه مبعثرة لذلك يستحيل تحديد بدقة حركتهم.

ورغم أن الوجه البشري للصحراء قد تغير باكتشاف المحروقات ونشوء المدن حول أبارها، خاصة في الشمال الشرقي للصحراء (6 ن/كم²)، واتجاه البدو إلى الاستقرار. ولا تتعدى الكثافة السكانية الوسطى 3.2 ن/كم² لكن هل يبقى للوسط الحسابي من معنى في هذه الحالة، باعتبار كل هذه المفارقات الخاصة بالتعمير السكاني؟ فلا وجود لواحات ولا حياة استقرار بدون وفرة للمياه؛ فالعلاقة واضحة ومباشرة بين توزيع واحات النخيل من جهة وعيون الزيبان والابار المتفجرة الارتزية لوادي ريغ وورقلة من جهة أخرى. كما أن جذور النخيل في واد سوف تنغمس في أعماق الرمل لتصل إلى المياه الجوفية داخل ما يشبه محاقن Vastes Entonnnoirs حفرها الانسان في الرمل؛ لكن رغم كل هذه القساوة التي تتميز بها الطبيعة إلا أن منطقة المزاب بمدنها السبعة⁴ وعلى رأسها غرداية، تمثل مفارقة حقيقية بما تحتويه من كثافة سكانية في منطقة تفتقر بشدة إلى الماء (Kouzmene, 1991, 122).

إنها أطر طبيعية كبرى لا تخلو من اختلافات ومفارقات، وليس فقط بين الغرب والشرق ولا بين مناطق وافة المياه وأخرى غير ذلك. إن طبيعة الأرض والتربة الخاصة لا يمكن بأي حال تجاهلها (Kouzmene, 1991, 132) فتعرف المناطق السهلية وحتى في التل مساحات شاسعة من الأراضي المالحة والعارية التي تسمى السبخة أو الشط في الغرب واللدان هما غير قابلان للزراعة. وتنتشر على مساحات واسعة ليس في الشمال الشرقي للصحراء فقط ولكن حتى في السهول العليا السهلية والتالية مثل التل الغربي بين سبخة وهران وواد الشلف السفلي. إنها مناطق شبه خالية أو قليلة التعمير كما تظهر على الخريطة. أما المناطق المائية marécageuses فهي في نفس مستوى التعمير مثل حوض الفزارة أو المنطقة الشرقية من سهول عنابة التي لا

أصول وواقع التعمير في الجزائر

تصلح إلا للرعي.

بينما لم تمتنع وعورة الجبال وفقرها التعمير في مرتفعات القبائل.

وتتمتاز بعض المناطق الزراعية بنوعية تربة جيدة مما يرفع فيها الكثافة السكانية. حيث يتبين من الخرائط مثلا الاكتظاظ السكاني القديم في جزء من "الحوض" miocène من منطقة قسنطينية، في سهول جيجل والوديان الفيضانية السفلى للواد الكبير وروافده او كذلك في السهول الجميلة للمتيحة أو عنابة.

2. أثر الاستعمار في توزيع السكان:

إن الخرائط المحفوظة تبين النتائج المترتبة عن تزايد المجموعات السكانية في الجزائر منذ 1830، عند دخول القوات الفرنسية في عهد الملك شارل العاشر إلى الجزائر العاصمة، وموجات الهجرة المترتبة عنها منذ ذلك الحين. وتشير الإحصائيات الفرنسية أنه في تاريخ 1954/10/31، عشية اندلاع الثورة التحريرية، كان عدد سكان الجزائر المسلمين 8487317 فرد، (علما ان سكان الجزائر تحت السلطة العثمانية كان يقارب 3 ملايين فرد)⁵، أما غير المسلمين من الأوروبيين واليهود فكان عددهم 1042409 ساكن، مما يعطي 9529726 ساكن (Yacono, 1954, 278). وتشير الخرائط إلى الأهمية النسبية لسكان المدن كما يتوضح ذلك من بعض الأرقام. فكانت نسبة سكان المدن ضئيلة جدا سنة 1830 وقد بقيت على نسبة 14% عام 1886، لتصل إلى 25% في 1954، بمعنى أقل قليلا من المغرب وتونس. لكن واقع الحال ان 79% منهم غير مسلمين، علما أن المسلمين يمثلون 8 مرات عدد غير المسلمين، حيث يتفوقون عددا في كل مكان ماعدا في وهران وعين تموشنت، مدينتين عرفتا هجرة اسبانية كبيرة، وكذلك سكيكدة التي عرفت هي الأخرى استقرار عدد كبير من المعمرين.

لقد كان الأوروبيون اقلية في العاصمة وفي عنابة وسيدي بلعباس وغيرها من المدن. للمقارنة مع تونس كبلد حضري منذ فجر التاريخ والمغرب الذي نشأت فيه المدن الكبرى منذ العصور الوسطى، بقيت الجزائر بلدا ريفيا رغم عدد المدن التي نخصيها اليوم والتي لا يعود تاريخ نشأتها إلا إلى الثلثين الأخيرين من القرن التاسع عشر.

لا تتعدى نسبة الأوروبيون الذين يعيشون خارج المدن 20% ويتوزعون جلهم في التل ماعدا البعض تبعا لضرورات الوظيفة العسكرية، التجارية والإدارية كما كان حالهم في الصحراء مثلا. فقد وُجد بعض المعمرين في الزيبان، ووادي ريغ ومسيلة لكنهم كانوا أكثر عدد في السهول العليا لاسيما السهول العليا القسنطينية وعلى شريطها الشمالي خاصة. وقد قل عددهم في مناطق زراعة الحبوب، أين تتسع الأراضي والمزارع، بينما يرتفع عددهم في مناطق زراعة العنب (la vigne) وفي المناطق ذات الزراعة المكثفة الغنية والمسقية وزراعة الفواكه والخضر. خاصة على الساحل في وهران، ساحل العاصمة والتمتيحة، وفي عنابة وسكيكدة.

على كل حال كان لتوزيع المعمرين أثر كبير على توزيع السكان الجزائريين أنفسهم على المكان، خاصة بالنسبة للذين كانوا يعتمدون على مهنة الزراعة عند المعمرين وأنواعها. ورغم أن توزيعهم يبقى نوعا ما مبعثرا في المناطق المستغلة زراعيًا من طرف المعمرين مثل زراعة الحبوب خاصة منذ نمو ميكنة الزراعة Mécanisation de l'agriculture ؛ في منطقة السهول العليا القسنطينية، منطقة عرفت انتشار للاستيطان بسبب هذا النوع من الزراعة. لكن توزيع السكان الجزائريين يرتفع أكثر في مناطق زراعة الكروم لأن هذا النوع من الزراعة يتطلب أربعة أضعاف من العمال الدائمين بالنسبة لنفس قطعة الأرض لزراعة الحبوب مثلا ولكن أيضا عددا مهما من اليد العاملة الموسمية: التل الوهراني هي المنطقة التي عرفت هذا النوع من التوزيع البشري. أما بالنسبة للمساحات المسقية وكذا زراعة البقول التي يقتات منها عدد كبير من العمال؛ فقد عرفت مناطق

أصول وواقع التعمير في الجزائر

الساحل في غرب وهران وكذا منطقة الجزائر العاصمة ومناطق أخرى، مما يعطيها كثافة ريفية تفوق 100 ن/كلم². وفي عموم الحال وباستثناء زراعة الحبوب، فإن التعمير الزراعي الفرنسي قد أدى إلى زيادة أكبر في كثافة السكان: وقد بين ذلك بويي P. Boyer بالنسبة لولاية الجزائر عندما قارن الخريطتين حول الكثافة البشرية اللتين أنجزهما بالنسبة لسنتي 1866 و1948 حيث يظهر أن سهول منطقة الشلف والمتيجة كانتا تحظيان بتعمير أقل في 1866 منه في 1948 Boyer, (1954, 77).

لكن أهمية الزراعة والنشاط الزراعي في ذلك الوقت تمثل أيضا في نشأة المدن، وإن كثيرا منها في أصله عبارة عن قرى زراعية تمت تنميتها بموارد المناطق التي تنتمي إليها: وهو حال كثير من المدن التي أصبحت جد مهمة مثل سطيف، سيدي بلعباس وكثير من المدن الأخرى أقل أهمية كعين تيموشنت، سيق، الحمديّة، شلف، بوفاريك، برج بوعريش وقلمة في منطقة الشمال القسنطيني. لقد أدى نشوء هذه المدن التي استست حول المناطق المستغلة زراعيًا إلى توسع الكثافة المتجمعة في هذه المناطق وبلغ العديد منها أكثر من 10000 نسمة.

لكن الخريطة المعتمدة لملاحظة الكثافة الديمغرافية للسكان في الجزائر في ذلك الحين لم تبرز أهمية الاستغلال المنجمي لتمرکز السكان. يعتبر منجم الحديد بالونزة ومنجم الفوسفات بالكوييف من أهم المناجم التي أحدثت تجمعا معتبرا للسكان، على التوالي، 4650 و4000 نسمة من العمال الجزائريين ومن الأوروبيين بنسبة أقل. كما ساهم نشاط الصيد البحري في نشأة بعض الموانئ علما أن ذلك لم يؤثر على الكثافة البشرية بصفة كبيرة باعتبار أن السكان الجزائريين متعلقون بالأرض منذ القدم وأن الصيد البحري لم يكن يعرف انتشارا معتبرا إلا مؤخرا.

نستنتج من كل هذه الوقائع أن ملاحظة الخريطة تكشف لنا أنه من بين 40 مدينة التي يفوق عدد سكانها 10000 ساكن (مجموعين)، أربعة منها فقط تقع خارج التل الجزائري: بسكرة، باتنة، تبسة وعين البيضاء خلال الفترة الاستعمارية. لكن لا ننسى عدد مهما من المدن الثانوية التي كانت على ضفتين جغرافيتين مختلفتين: بين السهول والجبال، بين التل وبين السهوب أو السهول العليا.

3. العوامل التاريخية:

لا تفسر العوامل الجغرافية والوقائع المتعلقة بحركة الاستعمار إلا جانبا من أشكال التوزيع السكاني في الجزائر، فهي لا تبين أساسا كيف أن أغلبية المناطق الجبلية أكثر تعميرا من السهول (Hamdan Khodja, 52, 1983). إنها ظاهرة حيرت المعمرين الأوائل، وقد استمر الوضع على ما هو عليه حتى مطلع القرن العشرين حيث عرفت السهول خاصة ومنها سهول عنابة ومنتيجة حركة استيطان سريعة. كما تشهد الكتل الجبلية في شتى أنحاء التل الجزائري تعميرا قويا وغير عاد مثل الكتل الجبلية التارة في الغرب ولكن، خاصة مناطق القبائل (المنطقة الوسطى من قبائل جرجرة، ومنحدرات السفلى لواد الصومام وبلاد بو سلام والبابور، والمنطقة الواقعة في الجنوب الشرقي لجيجل أيضا)، وفي الحقيقة يبدو وكأن كل الاطلس يعرف ارتفاعا في الكثافة السكانية الوسطية. (Despois, 1960, 918) ويمكن طرح نفس السؤال عن منطقة واد مزاب التي عرفت استقرار الآلاف منذ مئات السنين في مدنها "السبعة" منها خمسة متجاورة مع بعضها البعض على ضفاف واد من هضبة كلسية تشح من الماء في وسط صحراء قاحلة.

لقد كانت السهول، سواء السهول العليا أو السهول التلية المحصورة بين الجبال، على مر القرون الوسطى، جراء الفتوحات الإسلامية خلال القرن السابع الميلادي والحركات البدوية في القرن الحادي عشر، مناطق عبور الفاتحين والغزاة وكذلك مناطق ذهاب وإياب للجيش وتنقلات القبائل في إطار المغرب الذي تنقسمه دول متناحرة (Carette et Warnier). نتج عن كل

أصول وواقع التعمير في الجزائر

ذلك ليس فقط اختلاط كبير وتزاوج بين السكان لكن كذلك انعزال جزء منهم في مناطق جبلية أكثر أمنا بحكم تعذرهما على الفرسان والرعاة البدو لوعورتها. لكن هؤلاء الرعاة البدو الفرسان قد أحكموا سيطرتهم ليس فقط على المناطق السهلية والصحراء ولكن أيضا على سهول التل التي كانوا يستعملونها لرعي قطعانهم ومخازن غلتهم، وتحولت مع مرور الزمن إلى مناطق تقل فيها الزراعة ما عدا زراعة واسعة للحبوب وتربية الحيوانات. ولم تكن هذه المناطق آهلة كثيرا وتبين الخرائط التي خُطت في نهاية القرن 19 ذاك الفراغ الذي يميز حتى مناطق مثل سهول واد الشلف والمتيجة.

أما سكان الجبال الذين بقوا دائما بعيدين نسبيا عن التأثيرات الأجنبية وعن تجاوزاتها مما تعرض له سكان السهول جراء مرور الجيوش وتدخلات البدو الرعاة ونزواتهم الغازية. في نفس الوقت فقد حافظت هذه المجموعات بأعدادها المعتبرة على لهجاتها وعاداتها البربرية لاسيما نشاطها الزراعي الأقل توسعا منه في السهول. فقد اهتمت بزراعة الاشجار المثمرة مثل الزيتون والتين "مزاجين" تربية البهائم وزراعة الحبوب. إضافة إلى ذلك فإن التزارة والقبائل الغربية قد كانوا جد نشطين فكثير من الحرف وصناعاتها حتى كادوا يحولون مناطقهم في أعالي الجبال إلى "مناطق صناعية". قد يكون هذه الأنشطة الاقتصادية من بين العوامل التي مكنت السكان في الجبال من البقاء بكثافة في قرى واستقبال موجات هجرة عن طوع أو كره. هذا ما يفسر الفرق غير العادي بين كثافة الجبال وكثافة السهول والتي بقيت قوية على مر السنين وإلى اليوم رغم الهجرة إلى المدن الجزائرية الأخرى والهجرة الخارجية.

لكن ارتفاع الكثافة السكانية عموما في كامل الاطلس التلي، لا تعود إلى العوامل الطبيعية فحسب، والتزايد السكاني القوي في تلك المناطق إلى جانب التعمير الاستيطاني الفرنسي خلال منتصف القرن التاسع عشر. لقد كان في كامل المغرب العربي هجرة، تكاد تكون في اتجاه واحد، من الجنوب إلى الشمال. لقد استهوى التل على مر العصور سكان الجنوب بفضل محاصيله المنتظمة، حقوله الرعوية دائمة الخضرة، إلى جانب إمكانية العمل فيه في المدن والقرى. كما كان محط أنظار الأغنياء من مربي البهائم ومجموعات الرعويين من السهوب الذين ينتهي بهم الأمر بالاستقرار فيه. لكنه كان كذلك قبلة النجاة خاصة بالنسبة للبؤساء من الناس كمجموعات بشرية أو كأسر معدمة هروبا من القحط أو طمعا في العيش الكريم. فلا توجد هناك منطقة مهما كانت مغلقة في ظاهرها مثل التزارة والقبائل أو الاوراس إلا عرفت من سكانها من أصول "جنوبية"، اندمجت اليوم بصفة كاملة.

إن هذه الحركية في اتجاه الشمال استمرت وتكثفت بفعل التعمير الاستيطاني والنمو الزراعي للتل وزيادة المدن حجما وعددا. لقد بدأت حركة المهاجرين نحو السهول الخصبة ثم شيئا فشيئا نحو التجمعات الحضرية الأكبر خاصة مدعمة بذلك نزوحا ريفيا بسبب فقر وبؤس القرى والمداشر. وتبين الاحصائيات والخرائط انه في تلك الفترة ومنذ 100 عام تقريبا أن تزايد عدد السكان كان أكبر في التل منه في السهول العليا والصحراء.

أما عن منطقة المزاب التي تمثل حالة خاصة على الإطلاق، فإن سكان المزاب، بعد أن عرفوا فترة رخاء وتفوق في تيارت، كعاصمة للدولة الرستمية، ثم في سدراته (في جنوب ورقلة) بين القرنين الثامن والثاني عشر وجدوا مستقرا في منطقة واد مزاب على هضبة قاحلة وشحيحة أين حافظوا على مذهبهم، معتقداتهم، عاداتهم وتضامنهم كأقلية مذهبية. يعيش أهل مدن المزاب من دخول الهجرة المؤقتة للتجارة في شمال الجزائر أكثر من المزارع الصعبة السقي التي لا تساوي عادة الماء المستخدم لسقيها (Mercier M, 1922, 42).

كخلاصة، يمكن الجزم أن تسارع كثافة النسق الحضري في الجزائر تشمل ليس فقط مناطق الساحل بل كذلك المناطق السهلية والسهول ومناطق الهضاب العليا. في الشمال الشرقي من الصحراء الذي يؤدي حقول المحروقات يلاحظ نمو لشبكة

أصول وواقع التعمير في الجزائر

من المدن متسارعة الكثافة وبمدن مختلفة الاحجام.

قائمة المراجع

1. Baudelle G., Géographie du peuplement. Paris, Armand Colin ,Coll « Cours-Géographie », 2000, 192 p.
2. Boyer P., « L'évolution démographique des populations musulmanes du département d'Alger, 1830-1866 », in Revue Africaine, n° 4, 1954, pp. 440-441.
3. CNES, La conjoncture du premier semestre 1998: projet de rapport CNES, Alger, 1998
4. Côte M., La ville et le désert, Le bas Sahara algérien, Paris, KARTHALA et IREMAN, 2005. 307p.
5. Despois J., La culture en terrasses en Afrique du Nord. Annale. Paris 1956.
6. Despois J., « La répartition de la population en Algérie », In : Annales. Economies, sociétés, Civilisations, n° 5, 1960, pp 915-926
7. Dorier-Apprill E., Ville et environnement, SEDES, Paris, 2006, 512 p.
8. Guérin-Pace F., Deux siècles de croissance urbaine. La population des villes françaises de 1831 à 1990, ed. Anthropos, Paris, 1993, 205 p.
9. Hamdan Khodja., « Le miroir » : Aperçu historique et statistique sur la Régence d'Alger, Paris ; Deuxième édition Sindbad, 1983, 319 p
10. Kateb K., Européens, « Indigènes » et Juifs en Algérie (1830-1962), Représentations et réalités des populations, Paris, Travaux et documents, Cahier n° 145, Ed INED, 2001.
11. Kouzmine Y., Le Sahara algérien: Intégration nationale et développement régional, Paris, Editions L'Harmattan, 2012 - 344 p.
12. Lefebvre H., Du rural à l'urbain, Paris, Ed. ECONOMICA, 2001. 299 p.
13. Mercier M , La civilisation urbaine du Mزاب, Alger, 1922
14. Moriconi-Ebrard François., L'urbanisation du monde depuis 1950, Editions Anthropos, collection Villes, Paris, 1993 , 372 p.
15. ONS, Evolution des populations et des limites communales 1977/1987, Coll Statistique n°22
16. ONS, Evolution des agglomérations 1966, 1977 et 1987, Coll Statistique n° 97.
17. ONS, L'Armature urbaine RGPH 2008, Collections Statistiques N° 163/2011, Alger, 213 p.
18. Redjimi M(2000)., De l'empire à l'Etat démiurge : la recomposition du territoire algérien (1830-1990), Thèse de Doctorat en géographie, Université de Montpellier III.